جامعة تكريت
كلية التربية للعلوم الانسانية
قسم اللغة العربية

المرحلة الثالثة
المادة: نقد قديم عنوان المحاضرة: اللفظ والمعنى في النقد
اسم التدريسية: راوية عبدالله محمد

المحاضرة التاسعة

تعد قضية اللفظ من أهم القضايا

النقدية القديمة التي دار حولها الخلاف وكثرة فيها الآراء فنمحور ذلك كله

حول أيهما مصدر الإبداع الجيد في الشعر اللفظ ام المعنى؟.

فالمتتبع لذلك يجد ان قضية اللفظ والمعنى قد انبثقت عن الصراع القائم بين أنصار الشعر القديم ، والشعر الحديث ، فأنصار القديم ، من علماء اللغة ورواة الأدب اتخذوا اللفظ مقياساً لجودة الشعر ، فكلما قرب هذا اللفظ من البداوة ، وكلما كان لحبنا يملأ الفم ، ويهز السمع كان الشعر جيداً ، وأما أنصار الجديد من الشعراء والأدباء وبعض العلماء والنقاد ، فقد جعلوا من جودة المعنى والتعمق فيه وملاءمته لبيئة الشاعر وعصره وروحه وثقافته المزية الأولى للشاعر ، ثم جعلوا بعد ذلك ألفاظ الشاعر وعباراته.

وقد أسفر الخلاف حول اللفظ والمعنى بين النقاد عبر العصور مثيراً جدلاً كبيرا، فلم يوفقوا أو يهتدوا إلى رأي محدد!؟، فانقسموا إلى ثلاث طبقات:

أ- طبقة تنتصر إلى اللفظ دون المعنى .

ب- طبقة تنتصر إلى المعنى دون اللفظ .

ج- وطبقة وقفت موقف الاعتدال والتوفيق.

1 - أما أنصار اللفظ: فهم من الأدباء النقاد، كانوا يحتكمون في ميولهم إلى المقياس الجمالي، فمالوا إلى الألفاظ، ومن جهة سلامة اللغة، وصحة التركيب، والسبك ، وجمال الأسلوب وما ينطوي تحته من طلاوة.

ويعد الجاحظ من بين الذين نادوا بمذهب الصناعة والإفنان في الصياغة ، والتزويق الفني ، وهو صاحب فكرة المعنى مطروحة في الطريق ، وربما يعود هذا إلى أن الرجل قد تأثر بالفكر الإعتزالي الذي يعتمد على الجدال المنطقي ، وتكون الألفاظ سلاحاً مهما في مثل هذه المناقشات.

نفى الجاحظ الحسن في كلامه عن المعنى، ويتضح ذلك من خلال بيتين من الشعر سمعهما:..."وأنا قد سمعت عمرو وقد بلغ من إستجابته لهذين البيتين ، ونحن في المسجد يوم الجمعة ، وان كلف رجلاً حتى أصفر دواة وقرطاساً حتى كتبها له وانا أزعم ام صاحب هذين البيتين لايقول شعراً أبداً ، ولا ان أبخل في بعض القليل لزعمت أن أبنه أشعر منه ، وهما قوله"[1]:

لنحسين الموت موت البلى *** وإنما الموت سؤال الرجال.

كلهما موت ولكن ذا *** أفضع من ذلك لذل السؤال.

" وذهب الشيخ إلى استحسان المعا ، والمعا مطروحة في الطرق يعرفها العجمي والعر والبدوي والكردي ، وإنما الشأن في إقامة الوزن وتمييز اللفظ وسهولته ، وسهولة المخرج ، وفي صحة الطبع وجودة السبك ، فإنما الشعر صناعة وضرب من الصبغ وجنس من التصوير"[2].

فأنكر جاحظ على أ عمرو الشيبا اهتمامه بالمعنى ، حين أستحسن البيتين ، على الرغم من خلوه من الجمال والقوة- وقد أعجب هما أبو عمرو نظراً لما التمسه فيهما من "حكمة" توافقت مع مشربه الثقافي،

ونقاربت مع أخلاقه ، فلم يلتفت إلى رونق العبارات ، ولم يأبه لجودة الصباغة، وهذا ما رفضه الجاحظ مشيراً إلى أهمية الجانب الشكلي في حسن الكلام ، وقد قرر أن الأفضلية للشكل لا المعنى معتمداً الفكرة القائلة أن القرآن معجز بلفظه لا المعنى"[1].

ومن الذين توجهوا نحو اللفظ قدامة بن جعفر (337ه) يقول :"إن المعاني كلها معرضة للشاعر وله أن يتكلم منها في ما أحب وآثر من غير أن يحظر عليه معتديوم الكلام فيه ، إذا كانت المعاني للشعر ، بمنزلة المادة الموضوعية والشعر فيها كالصورة، لابد فيها من شيء موضوع يقبل تأثير الصور منها ، مثل الخشب للنجارة والفضة للصباغة ، وعلى الشاعر إذا شرع في أي معنى كان من الرفعة والصنعة والرفت والنزاهة والبذخ والقناعة والمدح وغير ذلك من المعاني الحميدة الذميمة ، أن يتوخى البلوغ من ذلك على الغاية المطلوبة"[2].

ونستشف من كلام قدامة أن المعاني في الشعر كالخشب، فليست رداءة الخشب عيباً في ذاته وإنما الذي يعيب النجارة صنعتها وشكلها الخارجي ، وفي ذلك يرى عبد القادر هني"أن قدامة يفصل بين الجوهر والمادة فيجعل الإبداع الفني وقفا على الشكل ، أما المحتوى فلا يهمه فيه إلا الصورة التي يبرزه فيها، وبذلك يصبح الإبداع قرين الإجادة في الصياغة"[3].وعند تتبعنا لقدامة في عملية الفصل بين الجوهر والمادة ندرك على الفور مدى اهتمامه بالشكل الخارجي ، بالتزويق والتنميق اللذين هما عنده عمادة البلاغة وسر الفصاحة.

وكذلك نجد أبا هلال العسكري (395ه) يدلي دلوه في نضبة اللفظ والمعنى ولم يختلف عن الجاحظ في تصوره للعمل الفني وهو يسير على نهجه، ودربه، فيردد ما قاله، بقوله: هو في جودة اللفظ وصفائه وحسنه ونقائه، ونزهاته ، ونقائه وكثرة طلاوته وصحة مائه مع صحة السبك والتركيب ، والخلود من أود النظم والتأليف.وليس يطلب من المعنى إلا أن يكون صوابا، ولا يقنع من اللفظ بذلك حتى يكون على ما وصفناه من نعوته التي تقدمت"[4]

فالعسكري يفضل اللفظ عن المعنى فينتصر إلى رأيه ويدعمه بقوله:"ومن الدليل على أن مدار البلاغة على تحسين اللفظ أن الخطب الرائعة ، والأشعار الرائقة ما علمت لإفهام المعاني فقط لأن الرديء من الألفاظ يقوم الجيد منها، في الإفهام وإنما يدل حسن الكلام وإحكام صنعته ورونق ألفاظه وجودة مطالعه، وحسن مقاطعه وبديع مبادئه وغريب مبانيه على فضل قائله ، وفهم منشئه ، وأكثر هذه الأوصاف ترجع إلى الألفاظ دون المعاني،

ولهذا تأنق الكاتب في الرسالة والخطيب في الخطبة ، والشاعر في القصيدة يبلغون في تجويدها ، ويغلقون في ترتيبها"[1].

وأنه يقدم أمثلة من الشعر تدل على قوة توجهه إلى اللفظ وتقديمه على المعنى، يقول:"إن الكلام إذا كان لفظه حلوا عذباً، وسلسا سهلاً ومعناه وسطاً، دخل في جملة الجيد وجرى مع الرائع النادر كقول الشاعر:

ولما قضينا من منى كل حاجة *** ومسح بالأركان من هو ماسح .

وشدت على حدب المهارى رحالنا *** ولم ينظر الغادي الذي هو رائح.

أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا *** وسالت بأعناق المطي الأباطح.[2]

ويعلق العسكري على هذه الأبيات بقوله:" وليس تحت هذه الألفاظ كبير معنى ، وهي رائقة معجبة وإنما هي: ولما قضينا الحج ومسحنا الأركان وشدت ، رحالنا على مهازيل الأبل، ولما ينظر بعضنا بعضا جعلنا نتحدث وتسير بنا الإبل في بطون الأودية"[3].

ومما سبق ألفينا تيار "اللفظ" يتلاقى مع الجاحظ في نفس الفكرة، " وهي، المعاني مادة الشعر ، والشعر فيها كالصورة ، فلا ينبغي الحكم على الشعر بمادته ، أي معناه وإنما يحكم عليه بصورته"[4].

2 – **أنصار المعنى :** يرون أن الإبداع في الشعر أساسه المعاني، ويعتمدون فيه الجانب الأخلاقي القائم على الحكمة والمثل ، والافتخار بالقيم الإنسانية النبيلة، ومن هؤلاء النقاد ابن قتيبة والآمدي.

– أما ابن قتيبة (276ه) فقد بين اللفظ والمعنى فصلا لا يبين منه ترجيح لأحدهما على الآخر فقد تدبر الشعر فوجده أربعة أضرب:

- أولا :" ضرب منه حسن لفظه وجاد معناه كقول ، القائل في بعض بني أمية :

في كفه خيزران ريحه عبق *** من كف أروع في عرنينه شمم

يغضي حياء، ويغضى من مهابته *** فما يكلم إلا حين يبتسم .[1]

–

[4]– د.غنيمي هلال : النقد الأدبي الحديث ، الطبعة الاولى – دار العودة – بيروت ، 1982م :ص/257.

– **ثانياً** : وضرب منه حسن لفظه وحلا فإذا انـت فتشته لم تجد هناك فائدة في المعنى كقـول كـثير:

ولما قضينا من منى كـل حاجة *** ومسح بالأركـان من هو ماسح

وشدت على حدب المهاري رحالنا *** ولا ينظر الغادي الذي هو رائح

أخذنا بأطراف الأحاديـث بيننا *** وسالـت بأعناق المطي الأباطح[2]

وعلق على هذه الأبيات بقوله :

" هذه الألفاظ كما ترى ، أحسن شيء مخارج ومطالع ومقاطع ، وإن نظرت إلى ما تحتها من المعنى وجدته: ولما قطعنا أيام منى ، واستلمنا الأركان وعالينا إبلنا الأنضاء، ومضى الناس لا ينظر الغادي والرائح، ابتدأنا في الحديث ، سارت المطي في الأبطح"[3]

يرى ابن قتيبة أن الفائدة التي عنها كـثير في هذا الشعر ، ولم يجدها، إنما هي المعاني التي فيها حكمة، أي المسبوكة التي يضبطها مجموع القيم والأمثال السائرة.

ثالثاً : وضرب منه معناه وتصرت ألفاظه[4] عنه، كقـول لبيد بن ربيعة **:**

ما عاتـب المرء الكريم كنفسه *** والمرء يصلحه الجليس الصالح

ويعلق على هذا البيت بقوله:" وهذا وإن كـان جيد المعنى والسبك فإنه قليل الماء والرونق كقوله النابغة (للنعمان)"[5].

خطا طفُـجُنَ في جبال منيئة ***تمُد ۞ا أيْدٍ إلي نوازع ۞

رابعاً: وضرب تأخذ معناه وتأخر لفظه كقـول الأعشى في امرأة :

وفوها كأ قاحي *** غذاه دائم الهطل.

كما شيب براح *** ۞د من عسل النحل.[1]

ونستنتج من ذلك أن ابن قتيبة قد فصل بين اللفظ والمعنى، بحيث قصر جودة الشعر على محتواه بعيداً عن صياغته، وبذلك قد أهمل الشكل في الشعر وأخذ بقدره كما لو كان شيئاً خارجياً يغلف به المضمون، وبذلك نرجح ان ابن قتيبة فصل بين اللفظ والمعنى لأنه كان ينبغي باللفظ جماله الشكلي وحسن إيقاعه.

-ويعد الآمدي (370ه) من النقاد الذين انتصروا غلى المعنى، فقد برز توجيهه هذا من خلال موازنته الشهيرة بين الطائيين(أبو تمام والبحتري)- فقد كانت هذا الموازنة وثبة جريئة في تاريخ النقد الأدبي بحيث أورد فيها نصوصاً تبرز نضبة الوضوح والغموض، في المعنى وتبعاً لمنهجه المتميز ممن سبقوه بقول:"وأنا ابتدئ بذكر ما سمعته من احتجاج كل فرقة من أصحاب هذين الشاعرين على الفرقة الأخرى عند تخاصمهم في تفضيل أحدهما على الآخر، وما يتعاه بعض على بعض لنتأمل ذلك ونزداد بصيرة في حكمك إن شئت أن تحكم"[2]

وبذلك نجد أن الآمدي حدد بوضوح المعنى وحدد صفات غموضه فهو يرى "أن هناك صفات يجب توفرها في المعنى حتى يكون واضحا"[3] وهذه الصفات هي :

1- أن يكون الشعر صحيح السبك.
2- أن يكون حسن الديباجة.
3-أن يكون مسنوياً يشبه بعضه بعضاً.
4- أن يسير الشاعر فيه على مذهب الأوائل ولا يفارق عمود الشعر.
5- أن يتجنب الشاعر التعقيد ومستكره الكلام وأن تكون ألفاظه سهلة عذبة لا تبلغ الهدر الزائد على قدر الحاجة.

ومن الضروري أن سوء التأليف ورداءة اللفظ يذهب بجمالية المعنى الدقيق ويفسده، أما حسن التأليف وبراعة اللفظ يزيد المعنى رونقاً وضاء.

وان الآمدي ينزع نحو المعنى فقد جعله مبتغى الشعراء، لما ينطوي عليه من حسن التشبيه وجمال الحكمة، والمثل، فهو معجب بما أتى تمام، وليس من جهة الصناعة اللفظية فحسب ولكن لما فيها من حكم، وأمثال لأن المعنى أساس الإبداع الشعري، ومقومات العمل الأدبي ككل.

ومن الذين انتصروا للمعنى – أيضاء – وقدموه المرزوقي (421ه) يقول:" فلما ... كان الشاعر يعمل قصيدته بيتاً بيتاً ، وكل بيت يتقاضاه بالإتحاد ، وجب أن يكون الفضل في أكثر الأحوال في المعنى وأن يبلغ الشاعر في تلطيفه والأخذ من حواشيه، حتى يتسع اللفظ له، فيؤديه على غموضه وخفائه، بصير المدرك له والمشرف عليه،كالفأز بذخيرة اغتنمها والظافر بدفينة استخرجها"[1].

يتضح من كلام المرزوقي ، أن من الواجب على الشاعر في العملية الإبداعية أن يغترف من منابع المعنى ليسقي جنان اللفظ، لأن اللغة لا تتم استقامتها واتساقها إلا بالأفكار الجيدة الخفية.